**السياحة في الأرض والكون.. دعوة قرآنية**

**السنوسي محمد السنوسي**

**كاتب وباحث إسلامي**

**يتعامل الإسلام مع بني الإنسان على أنهم كيان واحد، وتاريخ متصل، وحلقات مترابطة، يتبع بعضها بعضا، لا انفصال ولا انقطاع؛ ولهذا فقد أمرنا القرآن الكريم بالسير في الأرض للنظر في أحوال السابقين؛ لأخذ العبرة والدرس، ومشاهدة كيف تكون المصائر، الحسنة والقبيحة.**

**قبل أن نتطرق إلى دلالة الأمر القرآني بالسير والاعتبار، نشير إلى أن هذا المنهج في النظر للمسيرة البشرية - من حيث كونها متصلة مترابطة - يخالف ما اعتادت عليه مذاهب وفلسفات وضعية ترى في بني البشر حلقاتٍ غير متصلة، وطبقات غير متساوية؛ فهي - أي المذاهب والفلسفات الوضعية - لا تعترف إلا بذواتها ومن يدور في فلكها، وتحسب نفسها مركز الكون ومدار الأحداث!**

**وهذه النظرة العنصرية؛ المنحازة لجنس دون جنس، والمعترفة بالحقوق المعنوية والمادية لفئة دون أخرى؛ هي النظرة التي تحكمت في الحضارة الغربية منذ عقود، ومازالت آثارها ممتدة في واقعنا المعاصر، وتحول دون قيام حوار جاد متكافئ بين عالمي الشرق والغرب، أو الشمال والجنوب، أو الإسلام والغرب.**

**الاعتبار بتجارب السابقين**

**نعود إلى حديث الإسلام المستفيض عن السياحة في الأرض، فنقول: إن الدعوة إلى السير في كون الله الفسيح، ومطالعة أحوال من سبق، صالحين كانوا أم فاسدين؛ هي دعوة قرآنية بامتياز، تكررت في آيات القرآن الكريم بسياقات متعددة، تخلص جميعها لتأكيد حاجة الإنسان الماسة لأخذ العبرة ممن سبقه؛ فتاريخ البشرية سلسلة متصلة، ومشكلات الإنسانية - على مستوى الأفراد والجماعات - تتشابه في الكثير منها لدرجة التطابق.**

**ومادام الأمر هكذا، فمن العبث وإهدار الطاقات أن يغفل الإنسان عن تحصيل عبرة مبذولة دون مشقة - إن هو تأمل تجارب السابقين - ثم يصر على أن يبدأ الطريق من أوله، كأن أحدا لم يسر عليه من قبل!**

**ففي أعقاب غزوة أحد، التي كانت درسا قاسيا، يتنزل القرآن الكريم آمرا بالسير في الأرض، والنظر في سنن الله وقوانينه، التي تحكم مسيرة البشرية، في النصر والهزيمة؛ فقال: {قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (137) هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (138) }**
**(آل عمران:137-138).**

**أي «قد مضت من قبلكم أحوال للأمم، جارية على طريقة واحدة، هي عادة الله في الخلق.. وأريد النظر في آثارهم؛ ليحصل منه تحقق ما بلغ من أخبارهم، أو السؤال عن أسباب هلاكهم، وكيف كانوا أولي قوة، وكيف طغوا على المستضعفين، فاستأصلهم الله؛ لتطمئن نفوس المؤمنين بمشاهدة المخبر عنهم مشاهدة عيانٍ، فإن للعيان بديع معنى؛ لأن المؤمنين بلغتهم أخبار المكذبين، ومن المكذبين عاد وثمود وأصحاب الأيكة وأصحاب الرس؛ وكلهم في بلاد العرب يستطيعون مشاهدة آثارهم، وقد شهدها كثير منهم في أسفارهم» (1).**

**وفي الآية أيضا - كما يقول ابن عاشور - دلالة على أهمية علم التاريخ؛ لأن فيه فائدة السير في الأرض، وهي معرفة أخبار الأوائل، وأسباب صلاح الأمم وفسادها. وهذا السير ينقسم - كما قال ابن عرفة - إلى حسي ومعنوي؛ والمعنوي هو النظر في كتب التاريخ بحيث يحصل للناظر العلم بأحوال الأمم (2).**

**ويرى الإمام محمد عبده أن المعرفة التي يحصلها الإنسان من السياحة في الأرض ومن مشاهدة آثار السابقين، هي أعلى في الدلالة على السنن الإلهية من نظيرتها التي يحصلها من المطالعة النظرية؛ فيقول كما ينقل عنه صاحب «تفسير المنار»: «نعم، إن النظر في التاريخ - الذي يشرح ما عرفه الذين ساروا في الأرض، ورأوا آثار الذين خلوا - يعطي الإنسان من المعرفة ما يهديه إلى تلك السنن، ويفيده عظة واعتبارا؛ ولكن دون اعتبار الذي يسير في الأرض بنفسه، ويرى الآثار بعينه؛ ولذلك أمر بالسير والنظر» (3).**

**ولاشك أن المرء حين يطالع آثار السابقين، أو حين يرى منجزات الآخرين المعاصرين له - مما هو لازم من لوازم السير في الأرض، بمعنييه الحسي والمعنوي - فإنه سيجد نفسه أمام أفكار وأعراف وقيم وتقاليد وتجارب تتفق مع ما يعرف ويألف من جهة، وتختلف من جهة أخرى.**

**وهنا، نشير إلى أن المسلم ليست لديه ابتداء أي حساسية تجاه الآخرين؛ فالإسلام دعوة عالمية للناس جميعا، وهو يقرر المساواة والندية بين بني آدم، ويهدف لتعارفهم والتقائهم على كلمة سواء؛ وبالإضافة لهذا، فإنه يحض أتباعه على نشدان الحكمة أيا كان قائلها (4).**

**الاعتبار ببدائع الكون**

**كما أن المسلم بحاجة للسير في الأرض لينظر في أحوال من سبقه، ويقف على ما بها من عبر وعظات ودروس؛ فإنه أيضا بحاجة لسيرٍ آخر، وهو السير في الأرض ليتأمل بدائع صنع الله في الكون، وليرى دلالة هذه البدائع والتجليات - لقدرة الله وقيوميته - على إمكانية إعادة الخلق مرة أخرى؛ فمن خلق من عدم قادر على الإعادة، كما أن بدء الخلق وإعادته سواء عند الله جلت قدرته، لا يعجزه خلق ولا إعادة.**

**وقد أمر القرآن الكريم بهذا النوع الثاني من السير في الأرض، بقوله تعالى: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } (العنكبوت:20).**

**إن من يقدر على خلق هذا الكون من عدم، وعلى إنشائه وإبداعه على هذا النحو من النظام والانتظام، بحيث لا ينبغي لشيء أن يخرج عما حدد له؛ لهو قادر على إعادته كما بدأه.. هكذا يخلص العقل المتدبر، الذي لم تحجبه شوائب الفكر المعوج عن رؤية الآيات الباهرات المبثوثة في الكون، الدالة على طلاقة قدرة الله سبحانه، وعلى صنعه المتقن غاية الإتقان.**

**ومن نافلة القول أن نلفت النظر إلى أن المسلم يرتبط مع الكون بعلاقة متميزة ومتمايزة عن علاقة الآخرين به؛ فبينما تقوم علاقة الفلسفات والمذاهب المادية بالكون على مفاهيم الصراع والقهر، ومن ثم الاستنزاف والاحتكار؛ فإن علاقة المسلم به تقوم على مفاهيم التسخير والانتفاع والرعاية؛ فالكون مسخر من الله سبحانه للإنسان؛ الذي بدوره يحافظ عليه، ويراه نعمة من الخالق سبحانه، تستوجب الشكر للمنعم، والعناية بالنعمة وبذل ثمراتها للآخرين.**

**كما أن تدبر جمال صنعة الله، ومشاهدة التناسق البديع في الكون؛ بما فيه من أنهار ومحيطات ونباتات وحيوانات وجمادات، وعوالم متناهية الصغر، وأخرى ضخمة الأحجام، وملاحظة كل ذلك بعين الدقة؛ هو الخطوة الأولى في سلم المنهج التجريبي؛ الذي يتأسس على المشاهدة والملاحظة والتجربة والاستقراء والاستنتاج.. ذلك المنهج الذي أبدعه العلماء المسلمون أمثال جابر بن حيان والحسن بن الهيثم، وشادوا به حضارة زاهرة في مختلف العلوم والفنون؛ ثم ورثه منهم الغرب فأقام عليه حضارته المعاصرة، بعد أن كان أسلافهم من اليونانيين وغيرهم يعتمدون بصورة أساسية على المنهج النظري والعقلي.**

**إن الإسلام لأنه دين عالمي لا يعرف التقوقع في بيئة معينة، ولا الانحصار في جنس دون آخر؛ فإن الدعوة للسياحة في الأرض تجد لها سندا قويا من آياته ومقاصده.**

**بجانب ذلك، فإن أية وسيلة من شأنها أن تقوي صلة المسلم بربه سبحانه، وأن تزيد من وعيه بأغوار التاريخ وآفاق المستقبل؛ هي وسيلة مهمة وضرورية، تكتسب أهميتها وضروريتها من نبل الغاية التي تسعى إليها، ومن شرف المقصد الذي تنشده؛ وأي غاية أسمى وأي مقصد أجل من مطالعة آثار الله المبثوثة في الأرض، ومن إدراك سننه وقوانينه التي لا تتبدل، في خلقه وكونه على حد سواء.**